

الرواية الجزائرية المعاصرة بين التوثيق والتشويق رواية "الهائم" للكاتب الجزائري عبد العزيز مرابط أنموذجا

د بن حليلة هشام*
جامعة البليدة 2، الجزائر
hichamghano07@gmail.com

استلم: 25/01/2025، مقبول: 04/02/2025، نشر: 01/06/2025

الملخص: ما تزال الرواية الجزائرية المعاصرة تستلهم مكوناتها السردية من الثورة المجيدة، فظهرت في صبغة ملحمة وحلة تاريخية، وبقدر ما كانت الثورة رافد الأعمال الفنية فإن الرواية بطابعها التخيلي قد لا تستجيب لصرامة التاريخ بكونه مرجعا توثيقيا، إلا أن رواية الهائم للكاتب الجزائري عبد العزيز مرابط، الرواية التي نالت جائزة رئيس الجمهورية لسنة 2023 بمناسبة الاحتفال بالذكرى الفاتح من نوفمبر المجيد، قد تجاوزت تلك العوائق فجمعت بين التشويق بما يقتضيه العمل الإبداعي، وبين التوثيق التاريخي وما يتطلبه من دقة وأمانة، ونحاول في هذه الورقة البحثية أن نستكشف الأدوات الفنية والآليات السردية التي تضافرت وانصهرت لتبعث التاريخ وتعيد تمثيله وإخراجه للجيل الجديد في قالب مشوق.

الكلمات المفتاحية: الرواية، التاريخ، التشويق، السرد، الهائم.

The contemporary Algerian novel between documentation and suspense

The novel "Al-Haim" by the Algerian writer Abdelaziz Murabit is an example

ABSTRACT: The contemporary Algerian novel still takes its narrative components from the glorious revolution, so it appeared in an epic character and a historical suit, and as much as the revolution was a source of artistic works, the novel, with its imaginative character, may not respond to the rigor of history as a documentary reference. However, the novel Al-Haim by the Algerian writer Abdelaziz Merabet, the novel that won the President's Award for the year 2023 on the occasion of the celebration of the anniversary of the glorious November 1st, has overcome these obstacles and combined the suspense required by creative work, with historical documentation and the accuracy and honesty it requires, and we are trying in this. The research paper is to explore the artistic tools and narrative mechanisms that combined and fused to resurrect history, re-enact it, and present it to the new generation in the form Interesting.

KEYWORDS: Novel, history, suspense, narration, Al-Haim

*المؤلف المراسل: هشام بن حليلة، دكتوراه في الدراسات اللغوية، جامعة سيدي بلعباس

مقدمة

كان لثورة التحرير المباركة تأثير وصدى في مسيرة الأدب الجزائري، يقول الأستاذ عبد المالك مرتاض رحمه الله: فلما جاء الله بالثورة الجزائرية العظيمة فاندلع أوارها في نوفمبر من سنة أربع وخمسين تسعمائة وألف، وتشتت المثقفون الجزائريون في أصقاع الأرض، شذر مذر، وكان لهم في الوطن العربي متبواً ومقام، وكان لهم مع أهليه امتزاج وامتشاج، أخذوا يقرؤون للقوم فيعز عليهم أن يقرؤوا دون أن يكتبوا لهم مقابل ذلك عن ثورة التحرير التي كان العالم يترقب مسيرتها خطوة خطوة (مرتاض، 1990)، وعن الثورة المباركة أخذت الرواية الجزائرية صبغتها الملحمية والتاريخية، وعن تجربة روادها الأوائل -كالطاهر وطار و واسيني لعرج- أخذت خصوصياتها الفنية والأسلوبية والتي بها تميزت عن غيرها، وألهمت الجيل الجديد من الكتاب سبيل الكتابة ونمط السرد ولو بتحويلات غير خافية للملائمة الواقع الراهن.

الكاتب الجزائري عبد العزيز مرابط:

وإلى زمن غير بعيد ظهر اسم عبد العزيز مرابط في ساحة الكتاب الجزائريين الشباب، بقلم متميز وتجرية واعدة في الفن القصصي والسرد التاريخي، ولم تلبث هذه التجربة أن استوت على قدم النضوج واعتلت صرح الإبداع، حتى توجت بجائزة رئيس الجمهورية لسنة 2023 بمناسبة الاحتفال بذكرى الفاتح من نوفمبر المجيد، عن رواية الهائم، وهي الرواية التي تسمت باسم بطلها الهائم وهو أحد أبطال الجزائر إبان ثورة التحرير، بل هو ممن صنع ثورة بنفسه لسلوكه طريقاً محفوفاً بالمخاطرة والمغامرة، كان هو مضمون الرواية.

فهي تجربة فنية تجسد ملامح السرد الجديد، وتتبنّي المغامرة لنقل حالة الوطن والتقرب من الذات وأسئلة الهوية، سالكا التعبير بلغة سهلة وسرد مباشر وهو ما يميز روايات الكتاب الشباب (خليفة، 2020، صفحة 1013)، وبما أضفى عليها صاحبها من انفساح سردي، وتسلسل في الأحداث، ومزج بين الحقيقة والتخييل،

وكتابة تاريخ منسي، تاريخ القيم والأفعال النبيلة التي تستبعدا السلطة (خطاب، صفحة 151)، وقد لا يحفل بها المؤرخ لاهتمامه بالأحداث الجسام والمحطات الكبرى في التأريخ، أما الروائي فإنه يستهدف بقلمه تلك الزوايا المخفية والمحطات المنسية، يستهدف آلام المستضعفين وآمالهم، يصحح الرؤى ويستنطق بلغته السردية تطلعات المقهورين، فمن هذا الذي يكتب لصعلوك نصاب أو يأبه لمتنرد خارج عن القانون لا تمثل أفعاله في نظر العالم إلا كنملة تصارع فيلا أو تيسا يصارع بقرنه جبلا، نعم إنها الكتابة الروائية بطابعها الفني ولغتها الحكائية، فتبرز الشخصيات مدافعة عن ذواتها وعن قضيتها، ولتحرر العقل من نمطيته التي صنعتها قوى الشر، وتصنع الوعي، "فليس مجرما من دافع عن عرضه ووطنه، وليس لصا من استرد ماله وما أخذ منه غصبا ونهباً، إنه لص صاحب مبدأ وأصحاب المبادئ مثله خطر على فرنسا ومصالحها (مرباط).

العمل الروائي والحقيقة التاريخية:

لا تخفى نزعة الروائيين الجزائريين نحو التاريخ، وهي نزعة عامة في شتى ميادين الفن من مسرح وتمثيل وغيرها، ومرد الاشتغال بالتاريخ وتجسيده في الأعمال الفنية أنه تاريخ مشرف في ضمير الأمة، تاريخ حافل بالصراع والبطولات، راسخ في الأخلاق بالمآسي والآلام، ومن ثم كان معينا لا ينضب يستقي منه الروائي مادته يدبجها وفق منظوره الخاص وبأدواته الفنية والإبداعية.

ولنا أن نتساءل هل يمكن أن يتلائم المزاج الفني والهوى الإبداعي مع الحقيقة التاريخية الصارمة؟ لا شك أن "التعامل الذي يجمع بين الرواية كمتخيل والتاريخ كمرجع وواقع لا يكون هينا (خطاب)، فيخشى من جهة تحريف التاريخ بطغيان جانب الفنية والتخييل فتطمس معالم الحقيقة فيه، ومن جهة أخرى فإن التجرد للحقيقة قد يجعل الروائي مؤرخا مقررا للأحداث التاريخية، فهي ثنائية صعبة تجمع بين شبه متنافرين، بأن تعتمد إلى التاريخ تستقي منه أحداثا وشخصيات، وتسعى إلى إبرازها ونفض الغبار عنها، وتصويرها للمتلقى أقرب ما تكون إلى

الحقيقة، في ثوب قشيب من السرد والانزياح والتخييل والجمال، فالرواية التاريخية هي جنس أدبي يقوم بشرح الأحداث بمزيد من الحيوية والعاطفة، دون الوقوع في السرد التاريخي البحت، فهي يمكنها إحياء الماضي وغرس مواده في حياة جديدة، واختراق الشخصيات الرئيسية في فترة من الفترات واختصار الوصول إليها (عبيدي، 2024).

رواية الهائم بين التوثيق والتشويق:

يجد القارئ في رواية الهائم تقريراً للحقائق التاريخية وتسمية الأسماء بمسمياتها كأسماء الأعلام والمناطق (بني عليان، عمر قاضي)، والتجرد باللغة للإخبار والتقرير، إلا أن هذا لم يحل دون لمسة الجمال والإبداع الضافية على النص بالانزياحية في الأساليب والانحراف بالتعابير لمداعبة خيال القارئ واستفزاز عواطفه كقوله: كيف لا يهيم في الأرض من أطفئت في وجهه شعلة الأمل، ودُكت تحت أقدامه مسالك الطموح (م رابط)، فالكاتب يحسن استغلال طواعية اللغة واستدرار مكنوناتها والنظر في أدبياتها حتى يصل إلى هذا القدر المحترم من التمكن في باب السرد وحسن الربط والانتقال، والنص الناجح هو الذي يوظف هذه الموضوعية التاريخية على أساس أنها خلفية للأحداث تعطي الحدث طعمه وموضوعيته، ولا تعطل جماليته الفنية.

ومما لا ريب فيه أن اللغة هي إحدى الوسائل الفارقة التي يمكن أن نميز بها بين ما هو تاريخي وما هو روائي، فبفضلها يمكن للروائي أن يسمو بحكايته ذات المرجعية التاريخية الواقعية إلى مستوى النص السردى التخيلي، هذه اللغة التي تتميز بكثير من الشاعرية والذاتية التي تنافي موضوعية التاريخ وجفاءه، فتتحول الحكاية حينئذ من مجرد واقعة تاريخية يعرفها جميع الناس إلى حكاية مدهشة تحافظ على ما هو حقيقي من جهة، وتضفي عليه رونقا وسحرا يشد القارئ ويجلبه من جهة أخرى (حطاب)، وهو ما يتيح لها الرواج والانفتاح على طبقة واسعة من القراء، ولقد حققت رواية الهائم هذا الشرط بمراعاتها البساطة في

الطرح والأسلوب مع إحكام النسج واختيار الألفاظ بعناية فائقة، وتارة باصطناع الأساليب الجديدة كالتشبيهات والاستعارات كما يصوره خيال الكاتب، كتشبيه دخان السجارة بنسيم الليل وهي أيضا من معالم التجريب والتجديد في الرواية المعاصرة، والتجريب قرين الإبداع.

وانتحاء منحى البساطة في اللغة والوضوح في السرد والتسلسل الحكائي له أسبابه وظروفه، فإن الكاتب ابن بيئته ويكتب لأهل زمانه وهو أدري بحالهم وما يستهوي أذواقهم، ويناسب مداركهم اللغوية، وهو بهذا يصل إلى فئة واسعة من القراء على اختلاف طبقاتهم، على أنه ملتزم بحد الجودة والسلامة البيانية، فلا ينجر وراء التبسيط حتى يخرج إلى الإسفاف، بل إنه يأخذ القارئ بين الفينة والأخرى بفقرات متينة مجودة سبكا ومتنا توقظ في القارئ الشغف باللغة العالية وحسن التذوق لها.

وقد يستعين الكاتب في الهائم باللغة الهزلية للوصول إلى فكرة واعية، وهذا أيضا ملمح ملفت في الرواية، فيصادف القارئ أحداثا هزلية يستروح بها، لكنها ما تفتأ أن تنتهي به إلى فكرة عميقة: أيقنت حينها أن الخوف مجرد وهم مرسوم في أذهاننا فإن صدقناه صار حقيقة (مرباط).

فالبساطة اللغوية لا تتنافى مع الدلالة العميقة والمرامي الشريفة، والتعبير على الانفعالات الصادقة التي تؤثر في القارئ، ف لغة السرد لغة تجمع بين البساطة التركيبية والكثافة الدلالية، فالكلمات داخل البنية السردية مفعمة ومشحونة بالدلالة مثيرة للمتلقي لبلوغ قصد الرواية (خليفة، 2020) ورواية الهائم مشحونة بمثل هذه المواقف، بل هي تجسد فلسفة الحزن غير أن الرابط الذي يجمعهم جميعا واحد وهو الشقاء، نعم هو الشقاء وإن هذا الشقاء العميق ليختزل اختزالا في وجوه القوم (مرباط)، وقوله: لقد بكى كثيرا بكى أكثر مما يبكي أي رجل مع أن دمه العصي لا ينزل بسهولة .. وفلسفة النجدة وإغاثة الملهوف وفلسفة الأمل

والتحدي، تلك الشموع التي تصارع الريح تقول له: إياك أن تستسلم أيها الهائم
تسلح بالصبر ولا تيأس، قاوم خصومك كما نقاوم الريح .. (مرباط)

كما أن هذه اللغة المنسجمة مع روح العصر أكدت حضورها وقوتها في
التصوير وصناعة المشهدية التي تجعل القارئ يعيش الأحداث كأنه ينظرها رأي
العين، ولكن ما إن اقترب حتى ألقى نفسه في لمح البصر ملقى على قارعة الطريق،
حاول القيام فعجز وأراد الإفلات فلم يقدر... (مرباط)

البنية السردية والتماهي في التاريخ:

الالتزام بالسرد المطرد والحبكة الموزونة التي تتعانق الأحداث فيها وتتشابك
لتصنع العقدة أو ذروة الأزمة، وأحيانا تصير الحبكة مفككة والأحداث متشظية،
ولعله أحد أوجه التجريب التي تحاول تجاوز الأنماط السائدة والمألوفة، فهو
تحاول اصطناع نمط سردي جديد، باستجلاب أحداث التاريخ واستنطاقها في
مشاهد قريبة من المتلقي وبيئته وزمانه، لذلك نرى الشخصيات في الهائم تقترب
جدا من واقع القارئ اليوم، حتى حجب الزمان وهالة القدم لم تقف حاجزا
فغدت الأحداث قريبة جدا يشاهدها القارئ ويستشعرها.

من مظاهر التشويق في الرواية تلك التساؤلات والمساءلات التي كانت في ثنايا
الأحداث تنازع شخصية الهائم، وهي في الحقيقة تساؤلات أرد الكاتب أن يشغل بها
القارئ ويستثيرها في نفسه فينتقل إلى أوار الصراع ويعيشه..

فهو "تاريخ متخيل خاص داخل التاريخ الموضوعي... ورغم الاختلاف في الطبيعة
البنوية الزمنية بين المتخيل والموضوعي، فإن بين الزمنين أو التاريخين علاقة
ضرورية، أكبر من تزامنها، هي علاقة التفاعل بينهما. فبنية الرواية لا تنشأ من
فراغ، وإنما هي ثمرة للبنية الواقعية السائدة الاجتماعية والحياتية والثقافية على
السواء، وهي ثمرة بلغة التخيل لا بلغة الاستنساخ والانعكاس المباشر (عبيدي،
2024)

خاتمة:

يمكن أن نستخلص في ختام هذا البحث أن الرواية الجزائرية المعاصرة اعتمدت في تشكيلها وتطورها على التاريخ تستلهم منه الأحداث والشخصيات والوقائع، كما أعادت بدورها تمثيل التاريخ وبعثه في صورة تخيلية سردية تضمن المتعة وتحافظ على جوهر الحقيقة، وكانت رواية الهائم تجسد هذا التعالق بين الفن والتاريخ وتجمع بين التوثيق والتشويق.

المراجع

1. سعيد عبيدي. (2024). الرواية التاريخية احياء للماضي واستشراف للمستقبل. المجلة الالكترونية الرافد.
2. طانية خطاب. (بلا تاريخ). جدلية التاريخي والمتخيل في رواية الامير لواسيني الاعرج. مجلة تاريخ العلوم، 151.
3. عبد العزيز مرابط. (بلا تاريخ). الهائم. الجزائر: دار المنارة للنشر والتوزيع.
4. عبد الملك مرتاض. (1990). القصة الجزائرية المعاصرة. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
5. مشري بن خليفة. (2020). الرواية الجزائرية المعاصرة (التحولات والبحث عن الشكل). مجلة اللغة العربية و ادائها.